العقاد يبكى حبيبته !

(١٨٨٩ م - ١٩٦٤ م)

لو عاش الكاتب الكبـير عباس محمود العقاد إلى أيامنا هذه، لشـعر بالفخـر والانتصار، فقـد تحققت نبوءته فـى هزيمة الفكر الشـيوعى الماركسى، وكان عدوًا لماركس والشيوعية، وكتب عنها كثيرًا يفنـد الآراء ويثبـت أن هذا الفكر لابد وأن ينهـزم ويذهب مع الريح. ففى كتابه «أفيون الشعوب» يحلل العقاد شخصية «كارل ماركس» زعيم الفكر الشيوعى، وكيف أنه مجرد إنسان يكتب ليعيش ويرتزق ؟ وليس صاحب فكر أو نظرية، وأنه كلما كان ميسـورًا ماديًا ابتعد عن الكتابة وأجّلهـا، حتـى يأتيه الفقر والعوز فيعود إلى اسـتكمال كتابه - رأس المال - من أجل لقمة العيش، وهكذا كان «كارل ماركس» مجرد إنسـان يبحث عـن عمل يقتات به، وليس مفكرًا موهوبًا يريد أن ينشـر فكرًا جديدًا يخدم به الإنسان.

هكذا تنبأ «العقاد» بهزيمة الفكر الشـيوعى المادى فى الخمسـينات والسـتينات، وكانـت نظرته ثاقبة واعيـة، وتحقق ما قاله وفشـلت الماركسية فى تحقيق أهدافها، وأعلنت إفلاسها، ولعن الشيوعيون اليوم الذى عرفوا فيه ماركس وطبقوا مبادئه الهدامة التى أسفرت عن خراب ودمار اقتصاد الدول التى صارت على هديه وتعاليمه غير الواقعية.

كان «العقـاد» مفكرًا فذا، أو راهبًا للفكر، عاش بين الكتب والمراجع والموسـوعات، يقرأ ويكتب ويحلل، ويشعر بسعادة لأنه يمارس العمل الذى يناسـب مواهبه واسـتعداده، والذى اختاره منـذ نعومة أظفاره.

ويشرح لنا «العقاد» ذلك فى كتابه «حياة قلم» فيقول:

«إننى منذ بلغت سن الطفولة وفهمت شيئًا يسمى المستقبل لم أعرف لى أملاً فى الحياة غير صناعة القلم، ولم تكن أمامى صورة لصناعة القلم فى أول الأمر غير صناعة الصحافة، وأحسبنى حتى الساعة لم أبلغ من معرفة الباعث الصحفى فى نفسـى مبلـغ اليقين الجازم الذى لا رجعة فيـه، ولكننـى على يقين جازم من أننى أنشـأت صحيفـة فى طفولتى الباكرة، وأننى لم أنشـئها قبل أن أطلع علـى ودائع دولاب المنظرة فى بيتـى، وأكثر ما فيه صحف أسـبوعية أو شـهرية قديمة، وأكثر هذه الصحف القديمة من مجلات «عبد الله النديم» وبخاصة مجلة «الأستاذ» ووجدتنـى ذات يوم أقطع الـورق قطعًا على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منهـا فأكتبه بخطى متأنقًا وأعارض عنوان «الأسـتاذ» بعنوان «التلميـذ»، ثم أصدرت من صحيفـة «التلميذ» المخطوطة بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائى فى المدرسة وأقاربى المشجعين أو المتندرين المتفكهين. ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن..».

«عبـاس محمـود العقـاد» عبقرية فـذة، قَـل أن يجـود بمثلها الزمان، وقد ولد فى مدينة أسـوان سـنة ١٨٨٩، وهذه السنة بالذات شـهدت ميلاد مجموعة من العباقرة فـى دول مختلفة خدموا بلادهم

والإنسانية فى مجالات متباينة منهم عميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين»، صاحب المقولة الصادقة إن العلم ضرورى للإنسان مثل الماء والهواء.. والمؤرخ البريطانى «أرنولد توينبى»، صاحب نظرية التحدى والاستجابة بالنسبة للحضارة.. والفيلسوف الوجودى الألمانى «مارتن هيدجر»، الذى يُعرِّف الوجود بأنه مطبوع بطابع العبث والعدم، والزعيم الهندى «جواهر لال نهرو» صاحب مبادئ سياسة عدم الانحياز التى تبناها مع الزعيم الراحل «جمال عبد الناصر»، والزعيم اليوغوسلافى «جوزيف بروز تيتو»، والفنان البارع «شارل شابلن» الإنجليزى الذى استحق العالمية والشهرة العريضة.. الشعراء والبلابل «إيليا أبو ماضى»، «ميخائيل نعيمة»، «إبراهيم عبد القادر المازنى»، الساخر حتى فى موته.

اكتشف «العقاد» مواهبه منذ طفولته، وعرف مستقبله وهو مايزال صبيًا فشق طريقه بثقة، وقرأ كل الصحف والكتب والمجلات والأوراق التى وصلت إليه، وبخاصة التى وجدها فى دولاب فى بيته، وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية التحق بالعمل فى الشئون المالية فى محافظة الشرقية، براتب شهرى خمسة جنيهات، ومن هذه الجنيهات الخمسة استطاع أن يدخر جنيها فى كل شهر، وأن يجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغًا يكفى للإنفاق على العددين الأولين من صحيفة مطبوعة، فقد عرف بوعيه المبكر أنه إذا أصدر العددين الأَوَّلَيْن من الصحيفة فإنه لن يحتاج إلى المال بعد ذلك، لأن الصحيفة تباع وتأتى

بتكاليفها عددًا بعـد عدد، أو عددين بعـد عددين. وحتى يتفرغ لكتابة وإعـداد الصحيفة وإصدارها اسـتقال مـن وظيفته وجـاء إلى القاهرة، ولم تكـن العاصمة غريبة عليه، بل كان يأتى إليها مرة فى كل أسـبوع أو أسبوعين، ليشهد مسرح «الشيخ سلامة حجازى»، ويزور حى الأزهر باحثًا عن الكتب الأدبية رخيصة الثمن.. وفى القاهرة وجد من يعارضه فـى التفرغ للعمل الصحفى وترك العمل الحكومى، فقد كان المثل يقول: «إن فاتـك الميرى اتمرغ فى ترابه» أى إن العمل الرسمى الحكومى أفضل بكثير من العمل الحر الخاص، ولكن «العقاد» لم يأبه بهذا النصح، فقد قرر أن يكون صحفيًا منذ عرف المستقبل والعمل.

وعندما بلغ «عباس العقاد» السادسـة عشرة من عمره عمل لأول مرة فى تحريـر صحيفة «الدسـتور» اليومية، وكان هـو محررها الوحيد بجانب صاحبها، أى إنه كان يعمل محررًا ومترجمًا وملخصًا للأخبار، أما مرتبه عن كل هذا العمل فهو سـتة جنيهات وحسـب، وقد يضحك ويسـخر القـارئ من هـذا المرتب الضعيـف، ولكنه إبـان تلك الفترة التاريخيـة كان كافيا، يوفر لصاحبه حيـاة آمنة، ويحكى لنا «العقاد» عن أسعار ذاك الزمان سنة ١٩٠٥، أى بداية القرن العشرين فيقول:

«كانت خمسة مليمات فى ذلك الحين - أى نصف قرش صاغ - تعطيك مائدة إفطار حسـنة فى الصباح، وقد ترضيـك هذه المائدة عند الضرورة فى طعام الغداء أو العشـاء.. مليم ثمن نصف رغيف (شـقة من الخبز) يسـاوى وزن الرغيف فى منتصف القرن العشرين.. ومليمان ثمن الفول

والزيت.. ومليم ثمن صحفة من السلطة.. ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو إصبع موز أو أربع بلحات.. فإن أردت التغيير أو التنويع أمكنك أن تغير هذه الأصناف بالحلاوة الطحينية أو العسل والطحينة أو الجبن أو البيض، ومن هذه الأصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات!

ولك أن تتوسع في طعام الغداء، فلا تقنع بالأصناف التي تقدم على مائدة الإفطار.. ولكنك لا تحتاج إلى أكثر من عشرة مليمات للصحفة من الخضر المطبوخة، وعشرة مليمات للصحفة من الأرز، وعشرين مليما للصحفة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن.. وقس على ذلك سائر المأكولات..».

ويستطرد «العقاد» في كتابه «حياة قلم» وصف الحياة الاجتماعية وأسعار بداية القرن العشرين فيقول:

«وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام.. فكنت أنا من سكان الضواحي الخلوية لا يكلفني السكن في الشهر أكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على الطريق ومروج الخلاء..».

لم يكن «العقاد» وهو في هذه السن المبكرة مجرد موظف في رحاب صاحبة الجلالة الصحافة، ولكنه كان مفكرًا وأديبًا له مبادئه ومواقفه الثابتة، ففي كتابته لصحيفة «الدستور» التزم بالقضايا التالية»

- الجامعة الإسلامية هي جامعة جمال الدين، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة، لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة، أو تخليف ذلك السلطان..
- رفض سيادة الدولة التركية ومحاولة إصلاحها وبقائها.

- الدول الأجنبية لا تنفعنا إن لم ننفع أنفسنا، وسياسة مصر للمصريين هى أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجبات.
- الحزب الوطنى حزب مجتهد مخلص.
- الملوك والأمراء يخدمون القضايا القومية بمقدار ما تخدم عروشهم.
- الحكم الدستورى لا غنى عنه، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الأحوال.

وهكذا التزم «العقاد» فى كتاباته الصحفية بقضايا وطنه وأمته وكان واضحًا فى ميله إلى الحرية والاستقلال والدستور.

ورحلة «العقاد» مع القراءة والكتابة هى رحلة عملاق عرف منذ طفولته مواهبه وحدد هدفه، وربما كانت سهولة الكتابة عنده نتيجة مستفادة من سهولة القراءة، فلم يكن قارئًا إلا لأنه سيكون كاتبًا يومًا من الأيام، وقرأ فى كل ألوان الفكر من أدب وفلسفة ودين وفن وعلوم، ولم يكتف باللغة العربية بل قرأ باللغة الإنجليزية مما فتح أمامه نوافذ جديدة للفكر، وساعده على ذلك نظام التدريس وقت ذاك، فقد كان التلاميذ يتعلمون دروسهم فى المدرسة باللغة الإنجليزية، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة، وكانت صحف المدارس المقروءة فى إنجلترا بين المطالعات الإضافية المقررة على تلاميذ السنة الرابعة الابتدائية فى مصر، ودفعه حب القراءة باللغة الإنجليزية إلى شراء

المجلات والصحف الأجنبية المحلية التى تباع فى مدينة أسوان وبخاصة فى الشتاء.

استطاع «عباس محمود العقاد» أن ينتزع من المجتمع اعترافه به كصحفى مرموق وأديب عملاق، بفضل جهاده وكتاباته الكثيرة فى شتى المجالات، وقد أثرى المكتبة العربية بمائة كتاب فى مختلف ألوان الأدب والفكر، فى مجال الشعر قدم ديوانه الأول سنة ١٩١٦، وتوالت بعد ذلك مجموعاته الشعرية «وحى الأربعين» و «هدية الكروان» و «عابر سبيل» و «أعاصير مغرب» وفى سنة ١٩٢١ صدر له بالاشتراك مع «إبراهيم عبد القادر المازنى» كتاب «الديوان» وفيه هاجم «العقاد» أنصار الشعر القديم.

اهتم «العقاد» أيضًا بالتراجم وكتب فيها عن الكثير، حتى إنها تمثل نصف إنتاجه الفكرى عامة، فتحت عنوان «العبقريات» كتب: «عبقرية محمد»، «عبقرية المسيح»، «عبقرية عمر»، «عبقرية الإمام»، «عبقرية خالد»، «عبقرية الصديق» وغيرهم، كذلك كتب سيرة الزعيم «سعد زغلول»، وعن «ابن الرومى»، و «أبى نواس»، و «عمر بن أبى ربيعة»، و «بشار»، و «المتنبى»، و «حافظ إبراهيم»، و «البارودى»، و «التعريف بشكسبير»، و «برنارد شو»، و «جيته»، و «توماس هاردى»، و «هنريك ابسن»، و «الشيخ الرئيس ابن سينا»، و «فلاسفة الحكم فى العصر الحديث»، واهتم «العقاد» بالكتابات الدينية والفلسفية أيضًا فيجانب عبقرياته أصدر «الله»، و «الفلسفة القرآنية وحقائق الإسلام

وأباطيل خصومه»، و«ابليس»، و«ما يقال عن الإسلام»، و«التفكير فريضة إسلامية»، و«أفيون الشعوب». وكتب ترجمة ذاتية لنفسه في كتبه: «حياة قلم»، و«أنا»، و«في بيتي»، بالإضافة لمواقفه السياسية ومبادئه المعلنة في هذا المجال، كانت فلسفته الخاصة تتلخص في الإيمان بالروح والاحتفاء بالمثل العليا، والاعتزاز بكرامة الإنسان، والدعوة إلى التعاطف والتفاؤل والسلام.

«عباس محمود العقاد» أديب موسوعي، فعقله يهضم الجيولوجيا كما يهضم الشعر الرقيق، وقد كانت مكتبته تحوى حوالى أربعين ألف مجلد في شتى المعارف الإنسانية، وكان يسارع دائمًا إلى كل جديد من الكتب الأجنبية والعربية ليشبع فهمه من الفكر الجديد، وقد ساعدته طبيعته الانطوائية على صداقته الحميمة لكتبه.

وفي المجال السياسي ساهم «العقاد» مساهمات فعالة في تحريك ثورة سنة ١٩١٩، منحازًا إلى حزب الأغلبية بزعامة «سعد زغلول»، وكان مدافعًا باسلاً عن القضية المصرية، وحارب حربًا شعواء من أجل الدستور، وإرساء الحياة النيابية، بل هاجم «الملك فؤادًا» عندما حاول تعطيل الحياة النيابية، ووقف على منبر البرلمان - مجلس الشعب حاليًا - ليقول قولته الشهيرة:

«إن شعبنا قادر على أن يسحق أكبر رأس يتعرض لحرياته».

من أجل شجاعته هذه هوجم في رزقه، وكان مصيره السجن تسعة أشهر من أكتوبر سنة ١٩٣٠ إلى يوليو ١٩٣١.

عاش «العقاد» رحلة عمر ٧٥ عامًا من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٩٦٤،

كانت حافلة بالمواقف المشرفة سياسيًا حرًا، وكاتبًا عملاقًا وأديبًا فذًا، وإنسانًا جادًا، وكان مثالا للإنسان الواثق من نفسه المعتمد على التثقيف الذاتى، واشتهر صالونه الأدبى الذى كان يقيمه كل يوم جمعة ليلتقى فيه بتلاميذه وأصدقائه ومريديه، وخرج من هذا الصالون أدباء تفخر بهم مصر. فى إحدى جلسات هذا الصالون حاول الكاتب «أنيس منصور» أن يختبر ذكاء أستاذه فذكر له اسمًا وهميًا لكتاب صدر فى أوربا وأخذ يناقشه فيه، لكن «العقاد» المتمكن من نفسه ومصادره أجاب تلميذه بأنه لا يوجد كتاب بهذا الاسم يا مولانا.

كذلك كان «العقاد» متفائلا، لم يهتم بما يقال عن التشاؤم، بل تحدى التشاؤم فوضع تمثالا لبومة على مكتبه، وأقام فى بيت رقمه ١٣، وكذلك كتب عن الشاعر «ابن الرومى» الذى خاف البعض من الكتابة عنه تشاؤمًا منه، أما عَن جديته فقد اشتهر بها منذ طفولته، إذ رفض وهو دون العاشرة أن يرتدى البنطلون القصير فى المدرسة.

ولم يكن يسمح لزملائه الصغار بأن يمزحوا معه، بل عَرفت أمهات زملائه هذا الطبع فنصحوا أبناءهن بعدم المزاح معه.. كل الناس ولا عباس!

واستمرت الجدية طابعًا وجزءًا من شخصية العقاد حتى فى شرخ شبابه وشيخوخته، وساعده على ذلك قامته الطويلة وملامحه الحادة، وكذلك أسلوبه الصعب فى الكتابة، وعدم زواجه وتفرغه للفكر والأدب، وندرة الفكاهة فى كتبه، باستثناء كتابه «جحا الضاحك المضحك».

هكذا اشتهر «العقاد» بين الناس شخصًا صارمًا حازمًا جادًا، لا يعرف الابتسام أو المرح، لكن الأديب الكبير «رجاء النقاش» يقدم لنا معلومات جديدة فى هذا المجال فى كتابه الشيق «عباقرة ومجانين» فيقول:

«أما الجانب الآخر الذى اكتشفته فى «العقاد» فهو أنه ليس رجلا صارمًا مكتئبًا، بل هو إنسان مرح يضحك من قلبه، وله فى حديثه ملاحظات تتميز بدرجة عالية من السخرية البديعة التى تجعل الآخرين يضحكون من قلوبهم، وأذكر فى ذلك اللقاء السريع معه أنه أخذ يمثل لنا بصوته القوى بعض النماذج الاجتماعية التى تحاول أن تتظاهر بالعظمة المفتعلة لتفرض نفسها على الناس وتوهمهم بأنها شخصيات ذات شأن خطير، وكان العقاد فى تمثيله لهذه الشخصيات رائعًا، حتى ظننت أننى أمام الممثل العظيم «نجيب الريحانى» ولست أمام كاتب كبير هو عباس العقاد».

بجانب كتاب «رجاء النقاش»، هناك كتب أخرى توضح لنا الوجه الآخر الإنسانى «للعقاد»، مثل كتاب «غراميات العقاد» تأليف المرحوم «عامر العقاد»، وكتاب «الذين أحبوا مىّ» للشاعر «كامل الشناوى»، وكتاب «الجنس فى حياة هؤلاء» تأليف الدكتور «كمال مرعى»، هذه الكتب وغيرها تكشف لنا أسرار «العقاد» العاطفية وشقاوته وقلبه العامر بالحب والاحترام والشوق للمرأة، بعكس ما يتردد عنه بأنه ضد المرأة، وقد حضرت «للعقاد» ندوة واحدة فى حياتى تحدث فيها عن المرأة وقال: [إننى أريد من المرأة أن تعتز بنفسها وتفخر بأنوثتها

لدرجة أن تغضب ولا تسـمح لأحد أن يقول لهـا : إنها كالرجل، تماماً كما يغضب الرجل إذا قيل له: إنه كالمرأة].. وشعرت بأن كاتبنا العملاق ليس ضد المرأة، بل هو يحترم كيانها وأنوثتها ويرفض أن يشبهها أحد بالرجل.

وللمرأة في حيـاة «العقاد» صولات وجولات وحـب واعتزاز وغرام وانتقام، فقد أحبها وتمتع بها، بل إنه رجل قادر على امتاع محبوبته. وكما كان فحلا في الأدب، كان فحلا في علاقته بالمرأة أيضًا.

في الربع الأول من القرن العشرين، وبالضبط في السنوات من ١٩١٤ إلى ١٩٣٥ تطلع الأدباء والشـعراء والمفكرون إلى فتاة صغيرة شابة أديبة يجتمعـون في بيتها كل يوم ثلاثاء لمناقشـة أحدث الكتب والاسـتماع إلى شـعر الشعراء، بل ويسـمعونها تغني فقد كان صوتها جميلا، إنها [ميّ زيادة] التي اشـتهرت بصالونها الأدبي، وكانت كاتبة وشاعرة. تتحدث بثماني لغات بجانب اللغة العربية، وتقرض الشـعر، وتنشر مقالاتها في «جريدة المحروسة»، التي يصدرها والدها «إلياس زيادة»، وفـي المجلات الأدبية الأخرى.. «الهلال»، «المقتطف»، «الزهور»، ثم في جريدة «الأهـرام»، كانت «ميّ» متقدمة عن عصرها فنادت بتحرير المرأة ومسـاواتها مع الرجل وتعليمهـا، والقضاء على الظلم الاجتماعي والاهتمام باللغة العربية، ولم تكتف بمقالاتها في الصحف والمجلات، بل أصدرت عدة كتب منها : «رجوع الموجة»، «كلمات وإشارات»، «دموع وابتسامات»، «المساواة»، «بين الجزر والمد»، «ظلمات وأشعة»، «باحثة

البادية»، كما أصدرت ديوانًا من الشعر باللغة الفرنسية، وقصة باللغة الإنجليزية.

كان صالون «ميّ» الأدبى هو المكان المحبب للأدباء والمفكرين أسبوعيًا يجتمع فيه «الدكتور طه حسين»، «أحمد لطفى السيد»، «عبد العزيز فهمى»، «إسماعيل صبرى»، «الشيخ مصطفى عبد الرازق»، أمير الشعراء «أحمد شوقى»، «خليل مطران» شاعر القطرين، شاعر النيل «حافظ إبراهيم»، الشاعر «ولى الدين يكن»، «أنطون الجميل»، «عباس محمود العقاد»، «مصطفى صادق الرافعى»، «الدكتور شبلى شميل»، «سلامة موسى» وغيرهم كان الصالون ناديا ثقافيا يلتقى فيه كل الأدباء والشعراء على اختلاف عقائدهم وفلسفاتهم وميولهم، وكانت «ميّ» تعرف ذلك وتوفق بين الآراء والأشخاص، وتعطى كل واحد الفرصة فى التعبير عن رأيه بحرية، وكان رد فعل ذلك احترام الجميع لها وللآخرين وللصالون عامة.. بل إن كل أديب وشاعر وصحفى من رواد هذا الصالون كان يود أن يحظى بكلمة خاصة وعلاقة مميزة مع صاحبة الصالون الفتاة الجميلة التى تتمتع بشخصية قوية «ميّ»، ويحسن هنا أن نذكر وصف الشاعر «كامل الشناوى» لها:

«.. لم تكن قصيرة، ولم تكن طويلة.. كان قوامها نحيلا يريد أن يمتلئ، سمينًا يريد أن ينحل، صوتها هادئ حلو عميق، وجهها أبيض جميل مشرق دائما، أما شعرها فكان أسود متفحمًا، كانت ترسله وراء ظهرها بعناية توحى بعدم العناية».

وهكذا جمعت «ميّ زيادة» بين جمال الروح والعقل والجسد، وربما كان هذا سبب اهتمام الأدباء والمفكرين بها، كلٍ يريد أن يكون له مكانة خاصة في قلبها ولكن هيهات لهم ذلك، فقد كانت «ميّ» تعامل الجميع بحب واحترام وعفة نادرة الوجود، وفي هذا يقول «العقاد: «كانت «ميّ» متدينة تؤمن بالبعث، وأنها ستقف بين يدى الله يوما، ويحاسبها على آثامها، فكانت برغم شعورها بالحياة، وإحساسها العميق الصادق، وذكائها الوضاء، وروحها الشفافة ورقتها وأنوثتها، تحرص على أن تمارس هذه الحياة بعفة واتزان».

أحب «عباس العقاد» «ميّ» وهام بها إعجابًا، وكتب فيها أشعارًا تفيض بالغزل والشوق والحنين، وفى أشعاره عنها رمز إلى اسمها باسم «هند»، وككل العشاق والمحبين تعذب «العقاد» في حبها، من كثرة المنافسين، لكن الحب عصف بقلبها أيضًا فأحبته وخرجت معه، وكان الصديق الوحيد الذى ذهبت معه إلى دار السينما، والطريف أن دار السينما هذه كانت فى الكنيسة، فقد خشيت الكنائس أن تؤثر الأفلام السينمائية فى الأخلاق الفاضلة والعاطفة الدينية، فأعدت فى أبنيتها أماكن لعرض الأفلام، وكانت تتخير منها ما لا يتنافى مع الآداب المرعية، وبذلك لا تحرم المتدينين من مشاهدة الأفلام القيمة، وقد اشترطت «ميّ» على «العقاد» أن يذهبا إلى سينما الكنيسة فلم يمانع.

أحبت «ميّ» «العقاد» الأديب الكاتب الشاعر الإنسان، ولكنها لم تكن تحب «العقاد» السياسى، وحاولت أن تقنعه بترك الكتابة فى

السياسة؛ وكان «العقاد» كاتب الوفد والمحرر الأول لجريدة البلاغ، وفي هذا يقول العقاد:

«.. كانت «ميّ» تشفق عليّ من عنف حملاتي على الحكومة.. كانت تخشى أن تجرني هذه الحملات إلى السجن، وكثيرًا ما رجتني أن أخفف من غلوائي، وأنا أهاجم خصومي، حتى لا يلقوا بي في غياهب السجن، وتتعرض حياتي للخطر. وكنت أستغل هذه العاطفة في جعلها تبدأ بمصالحتي كلما وقع بيننا خصام.. ولقد حدثت بيننا جفوة، وأصْرَرْت على ألاّ أتصل بها؛ ولكني شعرت بحنين إليها، فلم أفكر في زيارتها أو كتابة رسالة لها، وكتبت مقالا عنيفا هاجمت فيه «إسماعيل صدقي»، وكان رئيسًا للوزارة.. وفي اليوم التالي جاءت «ميّ» إلى جريدة «البلاغ»، وقابلت المرحوم الأستاذ «عبد القادر حمزة»، وقالت له: ألم نتفق مع الأستاذ «العقاد» على أنه يحسن به في هذه الأيام الإقلاع عن هذا الأسلوب العنيف، حتى لا يعرض نفسه لما لا تحمد عقباه؟

ويستطرد «العقاد»:

وكانت غرفتي بجوار غرفة الأستاذ «عبد القادر»: ويفصل بين الغرفتين باب، وإذا هذا الباب ينفتح، وتطل منه «ميّ» وخلفها الأستاذ «عبد القادر» يقول: هذا هو الأستاذ «العقاد» فقولي له ما تريدين، واصطنعت «ميّ» الهدوء، وتصنعت الابتسام، وقالت لي: فيم هذا العنف؟ قلت لها، وفيم هذا الجفاء؟

وانحدرت من عيني «ميّ» الدموع، وحسبتها دموعي أنا لا دموع «ميّ».. فقد كان البكاء يخنقني..».

يقول «كامل الشناوى».. إن أقصى ما ناله «العقاد» من «مىَّ» قبلة على جبينها، أو قبلة على جبينه، وقد كانت «مىَّ» ضنينة بقبلاتها على كل من أحبوها.

كانت «مىَّ» أسطورة الجمال والأدب، وكان صالونها ملتقى كبار الشعراء والأدباء وأحبها كثيرون «العقاد»، والشاعر «ولى الدين يكن»، و «مصطفى عبد الرازق»، و «مصطفى صادق الرافعى»، بل حاول الأمير «محمد الجزائرى» أن يخطفها فوق حصانه في حراسة أعوانه ليتزوجها رغما عنها، ولكن خادمها أفشى السر وضيع على الأمير فرصته.

وتدور الأيام وتفقد «مىَّ» والدها سنة ١٩٣٠، ولم يمهلها القدر لتستريح، فبعد سنتين فقدت والدتها أيضًا، وبدأ الاكتئاب يتسرب إلى نفسها، والوحدة تكاد تقتلها، وأخذت تهرب من الناس رويدًا رويدًا، وأغلقت الصالون، وعرف ابن عمها حالتها هذه فبعث إليها من لبنان يغريها بالسفر إلى هناك، وفعلا سافرت «مىَّ» إلى لبنان، وهناك أدخلوها مستشفى العصفورية، وهى مستشفى للمجانين فساء حالها أكثر وأكثر، وأخذ أصدقاؤها الأدباء يبحثون عنها حتى عرفوا مكانها، وأثاروا القضية في الصحف مما اضطر الحكومة اللبنانية إلى التدخل ونقل «مىَّ» إلى مستشفى آخر لعلاجها من الضعف الجسدى وحسب، فلم تكن مجنونة، وعادت «مىَّ» إلى القاهرة، ولكنها لم تستطع أن تعود كما كانت، إذ ساءت حالتها وتدهورت صحتها أكثر وأكثر ويصف الكاتب الكبير «سلامة موسى» فى كتابه «تربية سلامة موسى» حياة «مىَّ» قبل

وفاتها بطريقة مأساوية يشيب لها الوجدان، وفى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٤١ رحلت «ميَّ» عن عالمنا وهى فى الخامسة والخمسين من عمرها تقريبا وبرحيلها فقدت الحياة الأدبية فى مصر واحدة من أجرأ وأشهر أديبات الرعيل الأول، ووقف «العقاد» على قبرها والدموع تطفر من عينيه قائلا:

«كل هذا فى التراب؟ آه من هذا التراب ! !».

فى الوقت الذى أحب فيه «العقاد» «ميَّ» وبادلته الحب العفيف، البعيد عن جنون الشباب، كان على علاقة شقية بفتاة أخرى قدمت له كل ما يريد، وعوضته خيرًا عن «ميَّ»، إنها «سارة» التى كتب عنها قصته الوحيدة، و «سارة» سيدة لبنانية كانت وقتذاك فى الخامسة والعشرين ربيعًا، مطلقة من رجل يكبرها بحوالى ثلاثين سنة، على قدر من الثقافة تجيد التحدث بعدة لغات، سمعت «سارة» عن «العقاد» الأديب والصحفى المعروف وقرأت بعض مقالاته، وسعت إليه تبدى إعجابها به، وصادقها «العقاد»، ووجد فيها الأنوثة والمرح والسعادة، كانت تأتى إليه فى بيته فيغلقه أمام الجميع حتى ينفرد بها وحدها، فتقوم بترتيب البيت وإعداد الطعام، ومن فرط سعادته يساعدها فى ذلك، ولا يخجل من تقطيع البصل أو حمل صحاف الطعام إلى المائدة، درست «سارة» شخصية «العقاد» وعرفت كل شىء عنه، وأحبته وأعطته كل شىء، وحافظت على مواعيده مما زاد حبه وإعجابه بها، كانا يقضيان معا أسعد أوقاتهما وحدهما ينظفان البيت، أو يطهيان

الطعـام، أو يلعبـان «الدمينو» أو يسـمعان الأغنيات التـى يفضلانها، وملأت «سـارة» حياة كاتبنا العملاق سـعادة وحبًا ومتعة: مما كان له أثره فى أدبه وكتاباته فتألق وتوهج وازداد ثراء فكريا.

ولكن دوام الحال من المحال، كما يقولون، ومع الأيام شعر «العقاد» بفتور من «سـارة» فتسرب الشـك إلى نفسـه، وتحول إلى حزن وأزمة نفسـية، فقد كان يعتقد أن «سـارة» قد وهبت حياتها له، وأخذ يسبح معها فى بحر السـعادة، لكنه فجأة يشعر بالتَّغَيُّر فيمنعه كبرياؤه من الاسـتمرار فى هـذه العلاقة، ونصحه أحد أصدقائه بأن يسـتمر معها لمجرد المتعة لا الامتلاك والحب الكامل، ولكنه رفض قائلا:

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى..
وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد..
وألقاك جسمًا مستباحًا وطالما..
لقيتك جم الخوف.. جم التردد..
إذا لم يكن بد من الكأس والطلل..
ففى غير بيت.. كان بالأمس مسجد..

ابتعد «العقاد» عن «سارة»، ورحلت هى إلى باريس لتعيش مع ابنتها هناك، ولم تنس الأيام الجميلة السـعيدة التى قضتها معه فأرسلت له صورتها بعد عدة سـنوات، وإذا علامات الزمن وآثاره تغير ملامحها، فنظر «العقاد» إلى الصورة وتفحصها ثم أمسك بالقلم وكتب تحتها:

من تكون ؟.

بموت «ميّ» ورحيل «سارة» لم تنته شقاوة «العقاد»، بل استمرت علاقاته بالمرأة واتسع قلبه العامر بحبها والمستعد لقبولها في أى وقت، وربما لم يسع كاتبنا العملاق إليها، بل كانت الظروف تضعها أمامه وتقربه منها، وحينئذ يلعب «كيوبيد» بقلبه ويدفعه دفعًا إلى الحب والمغامرة.

تعرف «العقاد» إلى فتاة صغيرة بعد ذلك جميلة فاتنة، انبهرت به في البداية، فقد كان أديبًا معروفًا وصحفيًا شامخًا، ترددت على بيته فأحبها وأحبته، بل وتعذب في حبها، فقد كانت تصغره في السن بسنوات ليست قليلة، وحاول أن يجعل منها «سارة» أخرى، ومع انبهارها وإعجابها به، إلا أن طموحها كان أكبر من ذلك، كانت ترى في نفسها موهبة كبيرة وصفات كثيرة يمكن أن تصنع منها نجمة سينمائية، وبالفعل حاولت أن تبتعد عن «العقاد» لتشق طريقها في مجال السينما، ونجحت وأصبحت النجمة الفنانة «مديحة يسرى».

روى لى الفنان الكبير «صلاح طاهر» كيف كان «العقاد» يتعذب في هذا الحب غير المتكافئ.. قال:

«.. ذهبت في إحدى الليالى كعادتي إلى بيت «العقاد»، فوجدته متجهمًا حزينًا، وأردت أن استخدم التليفون فمنعني وطلب مني الانتظار لأنه ينتظر مكالمة تليفونية منها حتى يهدأ باله ويستقر فؤاده، وكانت دموعه تسبق كلماته، فقد كان عاشقا محبا مخلصا..».

ومع أن «العقاد» أحبها حبًا عميقا خالصًا إلا إنه أعطاها حريتها في

أن تصبح نجمة سـينمائية وتبتعد عن طريقه، وهذه تضحية من عاشق ولهان ومحب هيمان، فالحب فى النهاية عطاء.

وهنـاك حكايات أخرى عن عمـلاق الفكر أسـتاذنا «العقاد»، يذكر منها الكاتب الكبير «رجـاء النقاش» فى كتابه «عباقرة ومجانين» هذه الحكاية: «أشـيع أن «العقاد» تزوج سرًا من سيدة كانت تخدمه وأنجب منهـا فتاة اسمها «بدرية».. وهى نفسـها الفتاة التـى انتحرت عندما سمعت بموت «العقاد» فى مارس سـنة ١٩٦٤ فذهبت إلى بيته وأخذت تصرخ.. بابا.. بابا.. فرَدَعَها بعض أقارب «العقاد» وطردوها من منزله فعزت عليها نفسـها وآثرت الانتحـار، وعلاقة الفتاة «بدرية» بالعقاد والقول بأنها ابنته أمر يحتاج إلى برهان دقيق غير موجود.. وإن كانت قصة انتحار الفتاة يوم وفاة «العقاد» هى قصة حقيقية ثابتة»..

أما الأسـتاذ «أنيـس منصور» فيخصص فصلاً فـى كتابه «فى صالون العقاد كانت لنا أيام» تحت عنوان «ثم انتحرت ابنة العقاد» صفحة ٦٣٠ يحكى فيه هذه القصة بالتفصيل فيقول ص ٦٤٠:

«وعلى السلالم تعثرت سيدة قد ارتدت الملابس السوداء تبكى وتلطم خديها. وتمسح وجهها فى عتبات السلم وتدق الباب الذى أغلق وتقول: لابـد أن أراه.. انتهـت الدنيـا.. لا دنيـا بعده.. لا حيـاة ولا موت.. يا خسارة.. يا رحمتك يا رب.. أين هو.. أراه؟.

وفتحوا الباب للسـيدة «فوزية».. و أدخلوها عليه.. وراحت تتمرغ فى الأرض، وتخرج الأحذية من تحت السـرير، وتضعها على رأسها،

وتقـول: يا ليتك.. مشـيت العمر كلـه على دماغـى.. يا ليتنى رأيتك أكثـر.. ليس فى الدنيا أكرم منـك.. ولا أطيب منك.. إذا احتجت إليك ليلاً أو نهارًا.. يا أطيب الناس.. يا أرحم الناس.. من الذى يعالجنى فى إنجلترا مرة أخرى؟.. ياليت سـاقى قد انقطعت.. ياليت عمرى كان الله قـد أخذه وأعطاه لك.. ما فائدة العمر بعـدك.. ألف رحمة.. الجنة لك يا «عباس».. يا عظيمًا.. يا سيد الناس.

وأخرجوها وهى تقاوم.. وأنزلوها السـلالم. وأغلقوا الباب. ولا أحد يقوى على أن يدخل غرفة الأسـتاذ ولا أن يراه، ولا أن يكشـف الغطاء عنه.. ولكن العيون تبكـى والحناجر تتمزق، والأيدى تدق الجدران.. والأقدام تدب على الأرض. والرءوس تتخبط فى الأبواب.

وبدأ تلاميذ «العقاد» يتوافدون: جاء صديقه الشاعر «طاهر الجبلاوى» وصديقه الأديب «خليفة التونسى» والفنان «صلاح طاهر» والأديب «جلال العشرى» والأستاذ «عبد الفتاح الديدى» وعدد كبير من تلامذته..

وفجأة تعالت الأصوات والصرخات، لقد عادت السيدة فوزية ومعها ابنتها «بدرية» فى السـابعة عشرة من عمرها، ودخلت «بدرية» وألقت بنفسـها عليه. وراحت تبكى.. وتصرخ فى حالـة جنونية.. وانكفأت على الأرض تلعق التراب تحت قدميه.. ثم تلعق أحذيته واحدًا واحدًا.. ثم تكشـف عن قدميه وتقبلها وتصرخ: أين أنت يا بابا.. أين ذهبت.. أنت لم تقل إنك سـوف تموت.. حرام عليـك.. لماذا لم تقل حتى أموت معك؟ لا حياة بعدك.

ثم هجمت على الزجاجات التى كان يتعاطاها، وراحت تصبها فى حلقها.. وراحت تبتلع كل الحبوب.. ومزقت ملابسها وشعرها.. وألقت بحذائها من النافذة.. ونزعت من الشماعة بيجامة الأستاذ، وراحت تلف نفسها فيها.. ثم أمسكت حذاء له ووضعته فى قدميها.. واندفعت من الباب إلى السلم تتدحرج عليه. وينزف الدم من رأسها.. ثم تختفى.. وتظهر السيدة فوزية مرة أخرى. وتسأل الأستاذ «عامر العقاد»: هل ترك الأستاذ وصية؟.

لا وصية.

هل ترك لنا مالا ؟.

ولماذا يترك لكم مالا ؟

أنا زوجته . !

هل معك عقد زواج ؟.

عند المحامى.

إذن فهات العقد.. امشى.. أخرجى يا بنت الـ..

وكانت السيدة «فوزية» قد وضعت صبغة زرقاء وسوداء على جانبى الوجه.. وكانت تمسك منديلا أسود.. وحاولت أن تتشبث بالأبواب وبالجدران.. وأن تجلس أمام باب الشقة ولكن الكثير من الأيدى قد دفعت بها إلى خارج الشقة.

ولما رأى البواب أن الجميع يدفعونها إلى خارج الشقة وبعيدًا عن البيت، أمسكها من يدها وأوقف لها أحد التاكسيات.

قالت له: هل يرضيك هذا ؟

أنـت تعرف كم كان الرجل طيبـا.. وتعرف أننا نجيء إليه كل يوم ثلاثاء.. وتعرف كميات الحلوى والفاكهة التى يشتريها لبدرية..

يا ســت هانم ليس وقته الآن.. والله أنـا لا أفهم.. على كل حال هذا المبلغ قد بعث به الأستاذ إليك.. ولم أجد وقتًا لكى أحضر إليك..

كم المبلغ ؟..

خمسون جنيها..

طول عمره رحيم.. طول عمره طيب.. يا ألف خسارة.. عليك العوض ومنك العوض يا رب!

ودق جرس التليفون، وكانت الســيدة «فوزيــة» هى التى تتحدث.. قالت: «بدرية» انتحرت.. بلعـت زجاجة حبوب منومة.. وماتت فى دار الشفاء..

ونزلـت سماعة التليفون، ولم يهتم أحد كثيرًا بما حدث «لبدرية».. وكان الأســتاذ يســمى بدرية «الكتكوتة»، وكانت تزوره مرة أو مرتين كل أسبوع.. ويحرص الأســتاذ ألا يكون أحد فى البيت.. وكان يشترى لها الملابس والهدايا والكتب والحلوى.. واحتفظ الأستاذ إلى آخر لحظة بشـيئين فى بيته: أسطوانة مسجل عليها حوار بين الأستاذ وبين طفلة صغـيرة.. تقول له: يا بابا.. وهو صوت «بدرية» هذه و «البلوفر» الذى أهدته إليه الفنانة الرقيقة «مديحة يســرى» ردًا على ديوان من الشــعر قد أهداه لها.

تأخر القطار الذى ينقل جثمان الأستاذ إلى أسوان ثمانى ساعات.. وكانت «بدرية» ماتزال فى المشرحة.. واتصلنا بوزير الصحة «د. نور الدين طراف» نرجوه ألا يقوم أحد بتشريح جثة الفتاة إكرامًا للأستاذ، وسترًا لهذه الفتاة المسكينة. ووافق «د. نور الدين طراف».

وعندما دفن الأستاذ فى أسوان دفنت «بدرية» فى القاهرة! وكانت السيدة «فوزية» قد وكلت عنها «د. على الرجال» المحامى ليدافع عن حقوقها.. وبعد أشهر من الوفاة لم تثبت أن لها حقوقا، فنزلت عن كل دعاواها. فلا زواج، لأنها متزوجة، ولا عقدًا عرفيًا، ولا شىء يثبت بنوة الطفلة للأستاذ!

ويؤكد الأستاذ «عامر العقاد» فى كتابه: «لمحات من حياة العقاد» كذب هذه الشائعة حول «بدرية» وهل هى ابنة غير شرعية للأستاذ أم لا؟ ويذكر قصة أسرتها وكيف ساعدت «العقاد» يومًا ما عندما كان لا يعمل فمنحته سيدة الأسرة حُلِيَّها ليرهنه ويفك ضيقته بالثمن، وقد فعل «العقاد» ذلك ثم سرعان ما أعاد لهذه السيدة حُلِيهًا، ولم ينس طوال حياته هذا الجميل، ولما ماتت هذه السيدة بعد ولادتها طفلة مباشرة، تبنى الأستاذ الطفلة طوال حياته حفظًا لجميل أمها.. يقول «عامر العقاد» فى صفحتى ٨٦، ٨٧:

«ونحن نذكر تلك القصة العاجلة لا لشىء سوى الدفاع عن الرجل العظيم سُبة أراد أن يلحقه بها بعض أعدائه بعد أن فارق الدنيا فتَقَوَّلوا عليه كذبًا أن تلك الفتاة كانت ابنة غير شرعية له.. ويعلم الله مدى

كذب هؤلاء وأنه - أى العقاد - رحمه الله - ما كانت صلته بتلك الفتاة إلا ردًا لجميل أمها عليه قبل سنوات طويلة مضت.. بل وغالى بعض أولئك الأدعياء فتقوّلوا بأن الرجل قد أوصى وصايا لتلك الفتاة الصغيرة ومزقها ورثته من بعده. وهذا كلام مردود لأن الذين عرفوا «العقاد» عن كثب يعلمون مدى عمل الاحتمالات في حياته، فلا أقل من أنه لو ترك وصية من الوصايا لسلمها لأحد أصدقائه المخلصين وهم ليسوا قليلين، ليظهرها عقب وفاته، أو أن يسلمها لتلك السيدة التى كانت ترعى تلك الفتاة وتسهر على راحتها على نفقته الخاصة طوال سبعة عشر عامًا أو يزيد منذ وفاة والدتها..».

هكذا عاش الأستاذ «عباس محمود العقاد» حياة مليئة بالأحداث، وكان جادًا فى كل شىء، حتى فى حبه، وكما كان عقله موسوعة للعلوم والآداب والفنون.. كان قلبه عامرا بحب المرأة واحترامها حتى نهاية حياته التى امتدت خمسة وسبعين عامًا.

يقول «سامح كريمّ» فى كتابه [عباس محمود العقاد الحاضر الغائب]: إصدار الدار المصرية اللبنانية:

«لم يتوقف قلب «العقاد» عن النبض حبًا بعد الستين، لقد عرف هذا القلب حب الكثيرات [منهن قصاصات وشاعرتان وباحثة وكاتبة إسلامية] وغيرهن وكلهن يذكرن «العقاد» كأستاذ وكأب وصديق يعرف ما للعلاقات الإنسانية من التزامات. وكلهن بكين عليه يوم وفاته..